سورة الذاريات

مكية وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وقرئ بإدغام التاء في الذال ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ السحاب، لأنها تحمل المطر. وقرئ: «وقرًا» بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر. أو على إيقاعه موقع حملاً ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ الفلك. ومعنى (يسرًا): جريا ذا يسر، أي ذا سهولة ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ الملائكة، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد: تتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة. وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكوّاء فقال: ما الذاريات ذروا؟ قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرًا؟ قال السحاب. قال: فالجاريات يسرًا؟ قال: الفلك. قال فالمقسمات أمرًا؟ قال: الملائكة (١٤٩٨) وكذا عن ابن عباس

١٤٩٨ ـ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا. هـ.
ورواه عبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤١)، وابن جرير في تفسيره (١١/ ٤٤٢) رقم (٣٢٠١٦). وروى البزار في مسنده رقم (٢٢٥٩ ـ كشف) حدثنا إبراهيم بن هانىء ثنا سعيد بن سلام العطار ثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن «الذاريات ذروا» قال: هي الرياح، ولولا أني سمعت رسول الله عليه وسلم ـ يقوله ما قلته قال: فأخبرني عن: «الحاملات وقرًا» قال: هي السحاب.. فذكر حديثًا طويلاً.
وعزاه الزيلعي (٣/ ٣٦٦) لابن مردويه في تفسيره، من حديث عبدالله بن موسى: عن ابن أبي سبرة به سندًا ومتنًا، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف:
أخرجه الحاكم والطبري وغيرهما من رواية أبي الطفيل قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله =

(١٤٩٩). وعن الحسن (المقسمات) السحاب، يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة، ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشىء السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جريًا سهلًا، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب. فإن قلت: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قلت: أمّا على الأوّل فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح، فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه. وأمّا على الثاني، فلأنها تبتدىء بالهبوب[1]، فتذروا التراب والحصباء، فتنقل السحاب، فتجري في الجوّ باسطة له فتقسم المطر ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود: البعث. ووعد صادق: كعيشة راضية. والدين: الجزاء. والواقع: الحاصل.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾

﴿ٱلْحُبُكِ﴾ الطرائق، مثل حبك الرمل والماء: إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسره. قال زهير [من البسيط]:

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ... رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ[2] /٢/١٩٦ب

== عنه ـ على المنبر فذكره، وزاد فيه: قال: «فمن الذين بدلوا نعمة الله كفرًا؟ قال: هم منافقو قريش»، وفي الباب عن عمر مرفوعًا أخرجه البزار، وفيه قصة منبع، وقال ابن أبي سبرة: لين الحديث، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث ا.هـ. ولم ينفرد به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبي سبرة أيضًا. انتهى.

١٤٩٩ ـ رواه الطبري في التفسير (١١/٤٤٢) رقم (٣٢٠٣٣) حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ـ ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله «فالحاملات وقرًا» قال: السحاب قوله: «فالمقسمات أمرًا». قال: الملائكة» ا. هـ.

---

(١) قوله: «فلأنها تبتدىء بالهبوب» لعله: فإنها. (ع)

(٢) حتى استغاثت بماء لا رشاء له ... من الأباطح في حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ... ريح خريق لضاحي مائه حبك
كما استغاث بسيء فزُّ غيطلة ... خاف العيون ولم ينظر به الحشك

لزهير: يصف قطاة فرت من صقر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له، أي: لا حبل يستقي به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح، أي: في الأمكنة المتسعة المستوية؛ فإن أراد من الماء مكانه؛ فمن بيانية، في حافاته أي جوانبه البرك جمع بركة، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم، أي: النبات الذي لا ساق له. وروي بعميم النجم، أي: طويله، تنسجه: أي تثنيه تثنيًا منتظمًا كالنسج، فهو استعارة مصرحة. والخريق ـ بالقاف ـ: الباردة والشديدة السير. والضاحي: الظاهر. والحبك: الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح. جمع حباك أو حبيكة. ==

obeikandi.com

والدرع محبوكة؛ لأنّ حلقها مطرّق طرائق. ويقال: إنّ خلقه السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي. وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم: فرس محبوك المعاقم[1]؛ أي محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه، وهو جمع حباك، كمثال ومثل. أو حبيكة، كطريقة وطرق. وقرئ: «الحبك» بوزن القفل. والحبك، بوزن السلك. والحبك، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ قولهم في الرسول: ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر وأساطير الأوّلين. وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويًا، إنما هو متناقض مختلف. وعن قتادة: منكم مصدّق ومكذب، ومقرّ ومنكر ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ الضمير للقرآن وللرسول، أي: يصرف عنه، من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه[2] وأعظم؛ كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله، أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين: أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاكّ، ومنهم جاحد. ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر: وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله في قوله [من السريع]:

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُرْبِ ....[3]

= والسيء بالفتح وبالكسر: اللبن في طرف الثدي. والفز: ولد البقرة الوحشية. والغيطلة: الشجر الملتف؛ فإضافة الفز إليها لأنه فيها. وقيل: هي البقرة الوحشية. والعيون هنا: رقباء الصيد وجواسيسه. وحشكت الدرة باللبن حشكًا وحشوكًا: امتلأت به. وحرك الحشك هنا للضرورة، أي: لم ينتظر به امتلاء الدرة، ولعمري نعمت هذه الاستغاثة. وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنة.

ينظر: ديوانه ص ١٧٦، ولسان العرب (نسج)، (خرق)، (حبك)، (نجم)، وجمهرة اللغة ص ٢٨٣، وأساس البلاغة (حبك)، وتاج العروس (نسج)، (حبك)، (نجم)، وبلا نسبة في المخصّص ١٤٩/٩.

(١) قوله: «فرس محبوك المعاقم» في الصحاح: المعاقم من الخيل: المفاصل، فالراسغ عند الحافر معقم، والركبة معقم، والمرقوب معقم. اهـ. (ع)

(٢) قال محمود: «يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه... إلخ» قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغني عن قولك من صرف، لأنه بمجرده كالتكرار للأول، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارًا، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، فكأنك قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلا صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(٣) ينهون عن أكل وعن شرب ... مثل المها يرتعن في خصب =

أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته: يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك، على البناء للفاعل. أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أنّ الحيّ كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ، فيقولون له: احذره، فيرجع فيخبرهم. وعن زيد بن عليّ: يأفك عنه من أفك، أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه. وعنه أيضًا: يأفك عنه من أفك؛ أي: يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرئ: «يؤفن عنه من أفن» أي: يحرمه من حرم، من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧] وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى: لعن وقبح. والخرّاصون: الكذابون المقدرون ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم، كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: «قتل الخراصين» أي: قتل الله ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ فيقولون: «أيان يوم الدين» أي متى يوم الجزاء؟ وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة. فإن قلت: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان؟ قلت: معناه: أيان وقوع يوم الدين. فإن قلت: فيم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلت: بفعل مضمر دلّ عليه السؤال، أي: يقع يوم هم على النار يفتنون، ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة. فإن قلت: فما محله مفتوحًا؟ قلت: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمر الذي هو يقع؛ ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون ويعذبون. ومنه الفتين: وهي الحرّة؛ لأن حجارتها كأنها محرقة ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ في محل الحال، أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلاً من فتنتكم؛ أي: ذوقوا هذا العذاب.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟

= يقال: نهي الجمل فهو ناه، إذا فرط في السمن. والمها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية. ويقال: أخصب المكان فهو مخصب، وأخصبه الله. وخصب خصبًا، كتعب تعبًا، وعلم علمًا: إذا كثر كلأه ونباته. يصف أضيافًا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلأ، فالخصب في الأصل: مصدر سمي به الكلأ.

﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾﴾

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم راضين به، يعني أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها ويرضاها ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم، وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿مَا﴾ مزيدة. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلاً ظرفًا، ولك أن تجعله صفة للمصدر، أي: كانوا يهجعون هجوعًا قليلاً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة؛ على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بـ «قليلاً» على الفاعلية[1]. وفيه مبالغات لفظ الهجوع، وهو الفرار من النوم[2]. قال [من السريع]:

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ[3]

---

(١) ذكر الزمخشري فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلاً ظرف منتصب بيهجعون، أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو تكون (ما) مصدرية أو موصولة على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بقليلاً على الفاعلية» قال أحمد: وجوه مستقيمة خلا جعل (ما) مصدرية، فإن قليلاً حينئذ واقع على الهجوع، لأنه فاعله. وقوله: (من الليل) بيانًا للقليل ولا بيانًا له، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه، ولا كذلك على أنها موصولة، فإن قليلاً حينئذ واقع على الليل، كأنه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون (من الليل) بيانًا للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج. وقد رد الزمخشري أن تكون ما نفيًا وقليلاً منصوب بيهجعون على تقدير: كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي عليه. قلت: وفيه خلل من حيث المعنى، فإن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود. ثم قال: وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا سحروا شرعوا في الاستغفار. كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. قال: وقوله: (هم) معناه: هم الأحقاء بالاستغفار دون المصرين. قال: وفي الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم. قال: وقوله: (قليلاً) وقوله: (من الليل) لأنه وقت السبات. قال: ومنها زيادة ما في بعض الوجوه. قلت: وفي عدها من المبالغة نظر؛ فإنها تؤكد الهجوع وتحققه، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل.

(٢) قوله: «وهو الفرار من النوم» في الصحاح: الفرار بالكسر: النوم القليل اهـ. (ع)

(٣)
قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نومًا غير تهجاع
أسعى على جل بني مالك كل امرىء في شأنه ساع

لقيس بن الأسلت. وحصت: أهلكت أو حلقت، البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب، أي حلقت شعر رأسي من دوام لبسها للحرب. وشبه النوم بالمطعوم لاستلذاذ مباديه على طريق المكنية، وأطعم: أي أتناول تخييل لذلك والتهجاع: التغافل قليلاً لطرد النوم؛ فالاستثناء منقطع. =

وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ و﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ﴿مَا﴾ المؤكد لذلك: وصفهم/٢/١٩٧أ بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وقوله: ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرّين، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه. فإن قلت: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً، ويحيونه كله؟ قلت: لا، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. تقول: زيدًا لم أضرب، ولا تقول: زيدًا ما ضربت: السائل: الذي يستجدي ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الذي يحسب غنيًا فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه الأكلة والأكلتان واللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان» قالوا: فما هو؟ قال: «الذي لا يجد ولا يتصدق عليه» (١٥٠٠) وقيل: الذي لا ينمى له مال. وقيل: المحارف[(١)] الذي لا يكاد يكسب.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوّة كالبساط لما فوقها كما قال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [طه: ٥٣] وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزأة: فمن سهل وجبل وبر وبحر. وقطع

١٥٠٠ ـ رواه البخاري (٤/ ١٠٤) كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: «لا يسألون الناس إلحافًا» الحديث (١٤٧٩) ومسلم (٤/ ١٣٩) كتاب الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، الحديث (١٠٣٩).
وأبو داود (١/ ٥١٣) كتاب الزكاة، باب: من يعطي من الصدقة وحد الغنى، الحديث (١٦٣١).
والنسائي (٥/ ٨٥) كتاب الزكاة، باب: تفسير المسكين، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. انتهى.

= وجلهم: مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم. وروي: على حبل بني مالك، وعليه فشبه العهد بالحبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية، أي: أسعى في شأني متمسكًا بعهدهم، وعلى الأول فقوله: «كل امرىء في شأنه ساع» فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم، وأنه شأنه.

ينظر: ديوانه ص ٧٨، ولسان العرب (حصص)، (هجع)، وتهذيب اللغة، وجمهرة اللغة ص ٩٨، ومجمل اللغة ٢/ ١٤، وديوان الأدب ٣/ ١٢٦، وتاج العروس (حصص)، ٢٢/ ٣٨٤ (هجع)، وشرح اختيارات المفضل ص ١٢٣٦، وبلا نسبة في كتاب العين ٣/ ١٤، ومقاييس اللغة ٢/ ١٣، والمخصّص ١/ ٧٠ وأساس البلاغة (هجع).

(١) قوله: «وقيل المحارف» في الصحاح: رجل محارف، بفتح الراء: أي محدود محروم، خلاف قولك: مبارك اهـ. (ع)

متجاورات: من صلبة ورخوة، وعذاة[1] وسبخة؛ وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والذواب المنبثة في برّها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال: من الوحشي والإنسي والهوام، وغير ذلك ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وإيقانًا إلى إيقانهم ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق: ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني. فإنه إذا جسا[2] شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ هو المطر؛ لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج وكل عين دائمة منه. وعن الحسن: أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة: هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد: أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدّر مكتوب في السماء. قرئ: «مثل ما» بالرفع صفة للحق، أي حق مثل نطقكم، وبالنصب على: إنه لحق حقًا مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحًا لإضافته إلى غير متمكن. وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق، كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما إنك ههنا. وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ؛ أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

---

(١) قوله: «وعذاة» في الصحاح «العذاة»: الأرض الطيبة التربة، والجمع عذوات. (ع)

(٢) قوله: «إذا جسا شيء منها» في الصحاح: جست اليد وغيرها جسوًا وجساء: يبست اهـ. (ع)

الرحمٰن. فقال: اتل عليّ، فتلوت ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفتّ فإذا انا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: فوربّ السماء والأرض إنه لحق، فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؛ قالها ثلاثًا وخرجت معها نفسه.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم؛ لأنه في الأصل مصدر ضافه/ ٢/ ١٩٧ب، وكانوا اثني عشر ملكًا. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل. وقيل ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملك معهما. وجعلهم ضيفًا؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف: حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك. وإكرامهم: أنّ إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون. قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم؛ وإلا فبما في ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذكر ﴿سَلَٰمًا﴾ مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلامًا، وأمّا ﴿سَلَٰمٌ﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب الله تعالى. وهذا أيضًا من إكرامه لهم. وقرئا مرفوعين. وقرئ: «سلاما» قال سلما. والسلم: السلام. وقرئ: سلاما قال سلم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام. أو أراد: أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، كما لو أبصر العرب قومًا من الخزر[1] أو رأى لهم حالاً وشكلًا خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم، كأنه قال: أنتم قوم

---

(١) قوله: «قومًا من الخزر» في الصحاح: الخزر: جيل من الناس. والأخزر: ضيق العين صغيرها، كما أفاده الصحاح. (ع)

منكرون، فعرّفوني من أنتم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه؛ ومن أدب المضيف أن يخفي أمره[١]، وأن يبادره بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يكفه ويعذره. قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم: البقر ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾. والهمزة في ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ للإنكار: أنكر عليهم ترك الأكل. أو حثهم عليه ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ فأضمر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه[٢] فظن أنهم يريدون به سوءًا. وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمّه ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليم: نبيّ، والمبشر به إسحاق، وهو أكثر الأقاويل وأصحها؛ لأن الصفة صفة سارّة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلها. وعن مجاهد: هو إسماعيل ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحة، من: صر الجندب، وصرّ القلم والباب، ومحله النصب على الحال، أي: فجاءت صارّة. قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء، وقيل فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا وعن عكرمة: رنتها[٣] ﴿فَصَكَّتۡ﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عَجُوزٌ﴾ أنا عجوز، فكيف ألد ﴿كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِۖ﴾ أي إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين. وروي أنّ جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَمَا

---

(١) قال محمود: «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره... إلخ» قال أحمد: معنى حسن، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعده معه، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد: يقال روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها: إذا غمسها فرويت سمنًا. قلت: وهو من هذا لمعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه: غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

(٢) قوله: «لأنهم لم يتحرموا بطعامه» في الصحاح «الحرمة»: ما لا يحل انتهاكه، وقد تحرم بصحبته اهـ. وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

(٣) قوله: «رنتها» في الصحاح الرنة» الصوت: يقال: رنت المرأة رنينًا وأرنت أيضًا: صاحت. (ع)

خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم وما طلبكم ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد: السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجرّ، حتى صار في صلابة الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة، من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به. وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب. وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين، كما سماهم عادين، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم: حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم. الضمير في ﴿فِيهَا﴾ للقرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة. وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد، وأنهما صفتا مدح. قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله ﴿ءَايَةً﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود منتن.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطف على ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ أو على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ على معنى: وجعلنا في موسى آية/ ٢/ ١٩٨أ؛ كقوله [من الرجز]:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا ....[1]

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فازورّ، وأعرض، كقوله تعالى: ﴿ونأى بجانبه﴾ [فصلت: ٥١] وقيل: فتولى بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه. وقرئ: «بركنه»، بضم الكاف ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي هو ساحر ﴿مُلِيمٌ﴾ آت بما يلام عليه من كفره وعناده، والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه. فإن قلت: كيف وصف نبيّ الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]؟ قلت: موجبات اللوم تختلف على حسب اختلافهما تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي ريح الهلاك. واختلف

(١) تقدم.

فيها: فعن علي رضي الله عنه: النكباء (١٥٠١). وعن ابن عباس: الدبور. وعن ابن المسيب: الجنوب. الرميم (١٥٠٢): كل ما رم أي بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: «الصعقة» وهي المرّة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة النازلة نفسها ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كانت نهارًا يعاينونها. وروي أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرّتهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به، إذا عجز من دفعه ﴿مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين من العذاب.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَوْمَ﴾ قرئ: بالجر على معنى: وفي قوم نوح وتقوّيه قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح؛ لأنّ ما قبله يدل عليه. أو واذكر قوم نوح.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿بِأَيْيدٍ﴾ بقوّة. والأيد والآد. القوّة. وقد آد يئيد وهو أيد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون، من الوسع وهو الطاقة. والموسع: القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ فنعم الماهدون نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل شيء من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى. وعن

١٥٠١ ـ عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٣٩) للفريابي، وابن المنذر.

١٥٠٢ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٦٩) (٣٢٢٢٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٣٩) (٨٤٦) كلاهما من طريق ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبدالرحمن عن سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «الريح العقيم الجنوب».
وعزاه السيوطي في الدر (٦/ ١٣٩) لابن المنذر، وأخرجه أيضًا الطبري (١١/ ٤٦٩) (٣٢٢٢٧) من قول الحارث بن عبدالرحمن.

الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، والموت والحياة؛ فعدّد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي إلى طاعته وثوابه[1] من معصيته وعقابه، ووحدوه ولا تشركوا به شيئًا، وكرّر قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] والمعنى: قل يا محمد: ففرّوا إلى الله.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر، أي مثل ذلك، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول ﷺ وتسميته ساحرًا ومجنونًا، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿مَآ أَتَى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتي؛ لأنّ ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت، لكان صحيحًا، على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ الضمير للقول، يعني: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعًا متفقين عليه ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

---

(١) قال محمود: «معنى ففروا إلى الله، أي: إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه... إلخ» قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله، لأنه لا يكاد يخلي سورة حتى يدس في تفسيرها بيده إلى معتقده، فدس ههنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتمل الآية لما ذكر؛ فإن العناية في قوله: (ففروا إلى الله) الفرار إلى عبادة الله فتوعد من لم يعبد الله، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة للدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري: المأمور؛ في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود. وعلى هذا لا يكون تكرارًا على اختلاف الوعيدين، فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها، ليتم الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت عنهم العناد واللجاج، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيمانًا. وروي أنه لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر، فأنزل الله. وذكر (١٥٠٣).

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها[1]. فإن قلت: لو كان مريدًا[2] للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا؟ قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه

١٥٠٣ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٤٧٥) (٣٢٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) (١٧٥٠) كلاهما من طريق إسماعيل بن علية قال: أخبرنا أيوب عن مجاهد قال: خرج علي معتجرًا ببرد، مشتملاً بخميصة فقال: لما نزلت: «فتول عنهم فما أنت بملوم» أحزننا ذلك. . . .

وأخرجه أيضًا إسحاق بن راهويه، وأحمد بن منيع، والهيثم بن كليب في أسانيدهم، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة كما في الدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٤١).

---

(١) قال محمود: «إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. . . إلخ» قال أحمد: من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهرًا موافق لمعتقده نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جوابًا؛ فكذلك صنع ههنا، فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره؛ فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم. والله تعالى لا يطلب من عباده رزقًا ولا إطعامًا، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقًا أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سيقت، وبه نطقت، ولكن الهوى يعمي ويصم؛ فحاصله: وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم وبالله التوفيق.

(٢) قوله: «لو كان مريدًا للعبادة» قد يقال: لا يلزم من خلقهم للعبادة أن يريدها من جميعهم. وقوله: «مع كونه مريدًا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر. وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده الله كان، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد. وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدًا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ / ٢/١٩٨ب ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

يريد: أنّ شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإنّ مُلّاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، فإمّا مجهز في تجارة ليفي ربحا. أو مرتب في فلاحة ليغتلّ أرضًا. أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته. أو محتطب. أو محتش. أو طابخ. أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأمّا مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم، وأنا غنيّ عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي، فما هو إلا أنا وحدي ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ الشديد قرئ بالرفع صفة لذو، وبالجر صفة للقوّة على تأويل الاقتدار والمعنى في وصفه بالقوّة والمتانة أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: «الرازق» وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرازق.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

الذنوب: الدلو العظيمة، وهذا تمثيل، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب. قال [من الرجز]:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ ... فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ[1]

---

(١) إنا إذا شاربنا شريب ... له ذنوب ولنا ذنوب
فإن أبى كان له القليب

الشريب من يشرب معك. والذنوب: الدلو الممتلئة ماء، والنصيب من الماء. والذنابة: مسيل الماء. والقليب البئر لقلب ترابه، يقول: إنا كرام نشاطر شريبنا، فإن لم يرض بالمناوبة أعطيناه الجميع. وروي بدل المصراعين الأخيرين:

لنا ذنوب ولكم ذنوب ... فإن أبيتم فلنا القليب

ولعل الصواب: فإن أبى أو فإن أبيتم فلنا؛ لئلا ينكر البيت. والمعنى: نقول لمن يشرب معنا ذلك، ففيه دلالة على الشجاعة والغلبة. والشريب كالعشير: يطلق على الواحد والمتعدد.
ينظر: لسان العرب (ذنب)، وتهذيب اللغة ١٤/٤٣٩، والمخصص ١٧/١٨، وكتاب العين ٨/١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٣٠٦ وتاج العروس (ذنب).

ولما قال عمرو بن شاس [من الطويل]:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ ... فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ[1]

قال الملك: نعم وأذنبه. والمعنى: فإنّ الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر.

عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة الذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا (١٥٠٤).

١٥٠٤ ـ تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ. انتهى.

---

(١) وأنت الذي آثاره في عدوه ... من البؤس والنعمى لهن ندوب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة ... فحق لشأس من نداك ذنوب

لشأس أخي علقمة بن عبيدة، يخاطب الحرث بن أبي شمر الغساني وكان أسيرًا عنده. والندوب ـ في الأصل: آثار الجراح بعد برئها. ومن بيانية، أي: آثاره التي هي البؤس والنعمى. أو ابتدائية، أي: الناشئة منهما، لهن بقايا في عدوه. والبؤس: الشدة. والنعمى: الرخاء. والخابط: الذي يخبط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص، ثم قيل لكل طالب: خابط ومختبط. ويجوز أن يكون من قولهم: خبط الشجرة؛ ليسقط ورقها للإبل والغنم فاستعار في نفسه الورق للأموال، والخبط تخييل والمعنى أنه شجاع كريم، بأسه أوهن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشأس من وضع الظاهر موضع المضمر لإظهار المسكنة والاستعطاف. وقيل: إن القائل عمرو بن شأس، فوضع الظاهر في موضعه. ولما سمع الحرث ذلك قال: نعم وأذنبته، وكسا شأسًا ومن معه، وأركبهم وأطلقهم، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب: وهو الدلو الممتلئة. ينظر: ديوانه ص ٤٨، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٤٠٠، وشرح المفصل ٥/٤٨، ١٠/١٥١، والكتاب ٤/ ٤٧١، ولسان العرب (جنب)، (شأس)، (خبط)، ومجالس ثعلب ص ٩٧ وبلا نسبة في سرّ صناعة الإعراب ص ٢١٩، وشرح المفصل ١٠/٤٨، والممتع في التصريف ص ٣٦١، والمنصف ٢/ ٣٣٢.